الفصل التاسع
الكتب والمكتبات في أوروبا في أوائل العصور الوسطى

قبل أن نخوض في موضوعنا هذا لابد لنا من أن نوضح ماهو المقصود بتعبير العصور الوسطى الذي نستعمله هنا. اعتاد المؤرخون، تسهيلاً للبحث ولاعتبارات أخرى كثيرة أن يقسموا مجرى التاريخ الإنساني العام إلى أقسام ثلاثة؛ لكل منها صفات معينة يتصف بها : العصور القديمة وتنتهي سنة ٤٧٦م سنة سقوط روما بيد البرابرة، والعصور الوسطى تنتهي إما سنة ١٤٥٣م سنة سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين، أو سنة ١٤٩٢م سنة اكتشاف أمريكا وسقوط غرناطة بيد الإسبان وإنهاء الوجود الإسلامي في إسبانيا، والعصور الحديثة وتبدأ منذ ذلك التاريخ وهي مستمرة حتى أيامنا هذه .

إن فكرة تقسيم مجرى التاريخ الإنساني إلى عصور معينة تفصل بينها سنوات محددة فكرة غير صحيحة وغير علمية، لأنه لا يمكن القول إطلاقاً أن العصور القديمة التي لها صفات معينة امتازت بها قد انهارت كلها دفعة واحدة في يوم واحد من عام ٤٧٦م، وأنه في نفس ذلك اليوم بدأت العصور الوسطى التي لها صفات تخالف صفات العصور القديمة. ولكن يمكن القول إنه حدث تغير بطيء وكبير في سير الحضارة، وأن ذلك استغرق عدداً من القرون مما أدى إلى زوال العصور القديمة ذات الحضارة المميزة لها وإلى ولادة العصور الوسيطة في أوروبا التي لها صفات خاصة تختلف بل وتناقض العصور القديمة. كذلك ما ينطبق على أوروبا قد لا ينطبق على غيرها من المناطق. فمثلاً نحن العرب المسلمين، يختلف تاريخنا في العصور الوسطى عن تاريخ أوروبا اختلافاً جذرياً، ذلك أن العصور الوسطى في أوروبا توصف أنها عهود مظلمة ساد فيها الجهل والفقر والمرض والظلم وسيطر فيها الإقطاع والتأخر والفوضى، ومارست الكنيسة سلطاناً طاغياً على الأبدان والعقول.

وإذا كان هذا صحيحاً في أوروبا فهو غير صحيح كلياً بالنسبة لنا، ذلك أن العصور

نفسها شاهدت انبثاق نور الإسلام من شبه جزيرة العرب وانتشاره ـ وبالتالي انتشار الحضارة الإسلامية ـ في بقاع كثيرة من بقاع الأرض ـ ورافق ذلك العلم والفن والأدب وازدهار الحضارة الإسلامية ازدهاراً رائعاً.

ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقة في الجهالة والفوضى كانت البلاد الإسلامية تزهو بحضارتها وجامعاتها وعلومها وكتبها ومكتباتها. ولذلك إذا وصفت العصور الوسطى أنها عصور مظلمة فإن ذلك صحيح بالنسبة لأوروبا وحدها. أما بالنسبة لنا فهي عصور زاهية أنتجت حضارة عظيمة ونشرت النور في العالم، فعصورهم المظلمة هي عصورنا المضيئة، وعصورهم المضيئة هي عصورنا المظلمة لسوء الحظ، ولقد بدأ العالم الإسلامي يتمزق ويفقد وحدته وتسيطر عليه روح الجهل والتعصب وبدأ يدخل عصوره المظلمة السوداء في نفس الوقت الذي بدأت أوروبا تستيقظ من سباتها وتأخذ بأسباب الحضارة والمدنية.

لقد تحطمت في أوروبا، مع غارات البرابرة، أغلب مؤسسات العصور القديمة ومن جملتها المكتبات، وتمزقت أوروبا إلى عدد كبير من الدول التي يحكمها البرابرة الجاهلون الذين لم يلبثوا أن بدؤوا يدخلون في المسيحية. ومن ثم بدأت الكنيسة تسيطر على نواحي الحياة في أوروبا وبدأت تحتكر لنفسها النواحي العقلية. ولذا ساد في أوروبا الجهل والتعصب، وانحصر العلم والتعلم ـ الديني وحده ـ في الكنيسة ورهبانها. ونشأت المكتبات أول ما نشأت في أوروبا في الأديرة والكنائس، وأصبحت الأديرة تضم عدداً قليلاً من المخطوطات ـ أغلبها ديني ـ تحرص عليها بشدة ، ولا تبيح مطالعتها إلا لرجال الدين وحدهم.

لعل الدير الذي أنشأه كاسيودوروس في إيطاليا من أقدم الأديرة التي تأسست في أوروبا في القرن الخامس ميلادي. ذلك أن كاسيودوروس بعد أن اعتزل الحياة العامة أسس في فيفا روم من إيطاليا ديراً ووضع له نظاماً نص فيه على أن يقوم الرهبان بقراءة النصوص الدينية بتمعن أو أن ينسخوا نسخاً عنها. لذا يمكن اعتبار كاسيودوروس هو الشخص الأول المسؤول عن مكتبة الدير وانتشارها وعن النسخ ووجوده في الأديرة. كذلك عاصر مع كاسيودوروس الرهبان البندكتيون الذين كان لهم نشاط واسع في حقل الكتب والمكتبات وإحياء التراث الكلاسيكي. ولقد أسس مؤسس الرهبنة القديس بندكت سنة ٥٨٢م ديرمونت كاسينو في إيطاليا ووضع نظاماً لرهبانه أكد فيه الأهمية القصوى لقراءة الكتب

والنصوص. ولقد درست الآداب الكلاسيكية اللاتينية ونسخت جنباً إلى جنب مع المؤلفات الدينية في الأديرة البندكتية العديدة التي انتشرت في كل أوروبا تدريجياً في النصف الثاني من القرن السادس. ولم يكن الأدب الكلاسيكي غاية لهؤلاء الرهبان وإنما كان وسيلة لتعلم اللغة اللاتينية حتى يتمكنوا من فهم النصوص الدينية المكتوبة باللغة اللاتينية.

لقد انتشرت فكرة الرهبانية وتأسيس أديرة تدريجياً في أوروبا، ويعود قسم كبير من الفضل في تأسيس الأديرة إلى بعثات رهبانية أتت من إرلندا. ذلك أن إرلندا تحولت إلى المسيحية على يد القديس باتريك في القرن الخامس الميلادي. ولقد امتاز الرهبان الإرلنديون بحبهم للمطالعة ودراسة المخطوطات القديمة، كما امتاز الرهبان أنفسهم بنشاطهم التبشيري؛ فأرسلوا الرهبان إلى إنكلترا وفرنسا وسويسرا وألمانيا وأسسوا فيها عدداً من الأديرة، وأوجدوا في كل دير مكتبة ومنسخاً لنسخ المخطوطات. ولعل أشهر هذه الأديرة دير سان غال في سويسرا الذي لا زال قائماً إلى اليوم. والذي ما لبثت مكتبته أن ذاع صيتها.

وأول من أسس ديراً في إنكلترا مع مكتبة هو القديس أوغسطين أسقف كنتر بري في أواخر القرن السادس . وقد شكلت الكتب القليلة التي أحضرها أوغسطين معه من روما المكتبة الصغيرة الأولى في أسقفية كنتر بري. وتتابع بعد ذلك إنشاء الأديرة في إنكلترا مع مكتباتها الصغيرة الدينية.

وقد تنافست الهيئات الدينية في إنشاء الأديرة في كل من بريطانيا وألمانيا وسويسرا وإنكلترا وإيرلندا، وكان كل واحد من هذه الأديرة الفرعية يتسلم من «المؤسسة الأم» مجموعة من المخطوطات كنواة لمكتبته المستقبلة.

وإذا درسنا تطور الكتاب في هذه الفترة نفسها وجدنا أن الكتابة تقدمت تقدماً ملحوظاً فيها، وذلك بسبب اختيار اللاتينية وسيلة للتعبير، والأدب اللاتيني ميداناً خاصاً للدراسة. فقد تطورت الكتابة السريعة التي ظهرت في القرون الأولى المسيحية وسارت جنباً إلى جنب مع الكتابة ذات الحروف الكبيرة وكتابة الحروف المستديرة وشبه المستديرة. ولم تلبث هذه الكتابة السريعة أن انتشرت وعم استعمالها وتطورت في أشكال عدة حسب الأماكن، فقد نشأت الكتابة الايطالية والمسماة باسم Benevent وسادت في إيطاليا في

القرنين العاشر والحادي عشر. وذاع استعمال الكتابة القوطية في إسبانيا حتى القرن الثاني عشر، وانتشر استعمال كتابة اسمها الكتابة الميروفنجية في فرنسا. كذلك شاع الاختزال وتعددت أشكاله كثيراً تسهيلاً لعمل النسخ حتى اضطر القوم لإيجاد معاجم لشرح هذه الرموز.

وكان النسخ يتم في مكان اسمه المنسخ، ويقوم بالنسخ الرهبان وهناك ناسخ لصلب المخطوط وهناك ناسخ آخر لكتابة عنوان المخطوط. ولقد انتشرت عادة زخرفة المخطوطات وتزويقها كل الانتشار في أديرة أوروبا في العصور الوسطى. وكانت الزخرفة تتعلق أول الأمر بتزيين وزخرفة الحروف الكبيرة وكتابتها بالأحمر، ثم تطور الأمر إلى استعمال المنمنمات في الزخرفة؛ وتفنن القوم في هذه الزخرفة واستعملوا في كتابة وزخرفة المخطوطات الفاخرة الذهب والفضة. ومن أمثلة هذه المخطوطات الفاخرة ذات الألوان الأرجوانية والمكتوبة بحروف الذهب والفضة المخطوط المعروف باسم «**المخطوط الفضي**» المحفوظ الآن بمكتبة جامعة ابسالا في السويد، وهو عبارة عن ترجمة التوراة التي قام بها أحد الأساقفة في القرن الرابع .م. ولقد أتت عادة التذهيب هذه إلى أوروبا من بيزنطة وظلت منتشرة فيها حتى أواخر القرن الحادي عشر ميلادي حيث يرى هذا النفوذ في عدد من المخطوطات الفاخرة كتوراة شارل الأصلع وكتاب مزاميره الموجودين حالياً في المكتبة الأهلية في باريس.

ولا بد من القول أن المزخرف كان راهباً آخر غير الناسخ أو الخطاط، وأن جميع الزخارف كانت أقرب إلى الفن الزخرفي منها إلى التصوير وتركز أغلبها حول الحروف الكبيرة. ولا تزال ألوانها زاهية حتى الآن.

ولقد حصلت نهضة في أوروبا في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع أسسها وغذاها شارلمان الذي وحد قسماً كبيراً من أوروبا الغربية تحت سلطته وتسمى هذه النهضة باسم النهضة الكارولنجية.

وعلى الرغم من أن شارلمان لم يكن عالماً، إلا أنه شجع العلماء وحاول تركيز الحياة العقلية حوله واستدعى العلماء من كل مكان، فتقاطروا وأشهرهم بول دياكر من إيطاليا والكوين من إنكلترا. حضر الكوين سنة ٧٦٢م إلى عاصمة الإمبراطورية آخن من إنكلترا وأصبح المشرف الأعلى على مدرسة القصر التي أسسها شارلمان في قصره. وأسس هو

والعلماء الآخرون الذين جمعهم شارلمان حوله أديرة ومدارس ومكتبات في أوروبا الغربية. وعندما أصبح الكوين أسقفاً لتور فيما بعد أسس هناك مكتبة شهيرة وألحق بها منسخاً. وأضخم مكتبة وجدت آنذاك في أوروبا الغربية هي مكتبة القصر التي أسسها شارلمان في قصره في آخن حيث ملأ رفوف مكتبته بمجلدات جلدت بأناقة، وتبادل الكتب مع أباطرة البيزنطيين.

ولقد أوجد العلماء الملتفون حول شارلمان ما يسمى باسم الكتابة الكارولنجية وهي كتابة صغيرة الحروف. وقد حلت هذه الكتابة تدريجياً محل أنواع الكتابات القديمة. كذلك ظهر فن زخرفي جديد في المخطوطات. ذلك أن المزخرفين حاولوا مزج التأثيرات القومية المختلفة في هذا الفن مع الفن الكلاسيكي القديم فظهر الفن الزخرفي الجديد الذي هو مزيج من جميع هذه العناصر. وقد تنوعت الزخارف وتعددت من الدوائر المتشابكة والحيوانات الخرافية إلى الموضوعات المأخوذة من المملكة النباتية كالأزهار والبراعم.

وقد انتشرت هذه المؤثرات في ألمانيا فأسس بها عدد كبير من الأديرة ألحق بكل واحد منها مكتبة مهمة مع منسخها. كذلك انتشرت هذه المؤسسات في بلاد إسكندنافيا حيث أسست فيها أديرة كثيرة ألحقت بها مكتبات مهمة وأنتجت عدداً من المخطوطات التي تدل على تأثيرات كارولنجية ولكنها فجة غير ناضجة.

ولقد زالت هذه النهضة بسرعة بسبب انقسام الإمبراطورية على نفسها والحروب الأهلية التي رافقتها وبسبب ضعف الأباطرة وهجوم الفايكينغ عليها مما أدى إلى خراب ودمار قسم كبير من الأديرة والمكتبات الملحقة بها.

ولقد اختلف موقف الهيئات الرهبانية من الكتب والمكتبات، وتأتي رهنبة البندكتيين على رأس محبي الكتب والثقافة ومشجعيها، على حين لم تهتم طائفة الفرنسيسكان بالكتب والمكتبات أول أمرها؛ ولكنها لم تلبث أن بدأت تهتم بها كل الاهتمام وتجمع الكتب وذلك بدءاً من القرن الثالث عشر. وبشكل عام اعترفت جميع هذه الطوائف بأهمية الدير كمركز للتعلم والتثقف واعترفت بأهمية المكتبة الملحقة به، وذلك على درجات متفاوتة وحسب العصور والأوضاع.

ولقد ظلت روما مصدر توزيع الكتب في أوائل القرون الوسطى. وحاول البابوات الاحتفاظ بمكتبات مهمة في مركز إدارتهم. وكانت الكنائس والأديرة المهمة المحدقة بروما

مزودة بمكتبات تختلف بأهميتها وحجمها. هذا وإن أقدم مكتبة معروفة في روما للكنيسة أسسها البابا داماسوس في أواخر القرن الرابع. كذلك تابع البابوات بعده اهتمامهم بالمكتبات حسب نسب متفاوتة كما فعل البابا غريغوري الأول (٥٩٠– ٦٠٤م). الذي وسع المكتبة البابوية وجلب لها المخطوطات من الشرق والغرب. ولكن الحروب الكثيرة والفتن المتوالية أدت إلى تغيير هذه الصورة وإلى محق كثير من الأديرة والمكتبات وتدمير محتوياتها. ولقد كان القرنان العاشر والحادي عشر فترة سوداء مظلمة في تاريخ تطور المكتبات في أوروبا الغربية، بإستثناء بعض البقاع المضيئة في بعض الأماكن كدير كلوني في فرنسا ودير سان غال في سويسرا، كان هناك عدد كبير من الرهبان أميين جهلة لا يفهمون قيمة الكتب مما جعل الكتب تتلف، وأغلب الأعمال التي نسخت كانت كتباً دينية وانخفض عدد الكتب في أوروبا عما كان عليه سنة ٩٠٠م مثلاً. ولكن جنوبي إيطاليا كان استثناءً من هذا الحكم بسبب احتكاكه المستمر ببيزنطة مما جعل الآداب الإغريقية تنتعش واستمر الاهتمام بالكتب والمكتبات. ولقد تحسنت الشروط والظروف المادية العامة في أوروبا عند اقتراب القرن الثاني عشر من نهايته، ولكن مكتبة الكاتدرائية حلت محل مجموعة الكتب الديرية في الأهمية، وكلتاهما تقلصت أهميتهما بعيد ذلك أمام الجامعة ومكتبتها في أواخر العصور الوسطى.

الحياة وتنظيم المكتبة الديرية:

اتخذت حياة الكتاب في هذه العصور مظهراً عاماً مشتركاً سواء كانت تلك الحياة راقية ناهضة، كما هي الحال بفرنسا وألمانيا، أو متواضعة، كما هي الحال في الأقطار الإسكاندنافية.

النساخون : كان النساخون كلهم من الرهبان والراهبات الذين يجلسون في القاعة المخصصة للنسخ والتي تسمى المنسخ Scriptorum وتقيد الحياة فيه بالنظام الصارم. وكثير من المخطوطات القديمة جاء نتيجة مجهود عدة سنين استنفدت في إنجازها بحيث لم يكن من الممكن عملها في أي مكان آخر غير الأديرة. وكان المعتاد اشتغال شباب الرهبان بعملية النسخ، وغالباً ما كان عدد من الرهبان يشتركون في إتمام مخطوط واحد يتقاسمون فصوله.

وكانت مجموعة الكتب في مكتبات الأديرة والكاتدرائيات أعداداً قليلة من

المخطوطات لا تتجاوز الثلاثمائة إلا في النادر، وأغلبها ذو طابع ديني تعليمي وموضوعة في صندوق أو صندوقين مقفلين. وكانت مصادر الكتب لهذه المكتبات هي بالدرجة الأولى ما ينسخه الرهبان أنفسهم، بالإضافة إلى ما كان يصل إليها من هدايا النبلاء والأغنياء والملوك والأساقفة ممن كانت تخلد ذكراهم من أجل هذه الهدايا في سجل الإهداء ويدعى لهم بعد الصوات. وكان هناك تبادل للكتب بين الكنائس والأديرة وبيع وشراء.

وكان منصب أمين المكتبة من المناصب المهمة، وكان هذا المنصب يوكل إلى أحد الرهبان بالإضافة إلى عمله كمشرف على المنسخ ليصبح أميناً للمكتبة. ولكنها غالباً توكل إلى راهب متعلم لأهمية المكتبة ووظيفتها.

وكثيراً ما يكون المكتبي في نفس الوقت مرتلاً وحارساً للذخائر. وكان يمسك سجل وفيات الدير إلى جانب قيامه بمراقبة ترتيب الكتب في المكتبة ونظافتها وإنشاء فهرس لها. وقد وصلنا عدد كبير من هذه الفهارس التي تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً. فبعضها مرتب بعناية وبعضها مهمل، وبعضها سجل حسب الموضوعات، على حين وجدت فهارس لا تخضع في ترتيبها لأية قاعدة. وكان على كل كتاب علامة تثبت ملكيته، يضاف إليها غالباً، صيغة تنص على لعن كل من تحدثه نفسه بسرقته.

وكانت الإعارة داخلية بين الرهبان بعضهم بعضاً. أما الإعارة الخارجية فلم يكن مسموحاً بها إلا إلى أديرة أخرى. وإن يكن وجد حالات نادرة أعيرت فيها كتب لعدد من العلمانيين أصحاب النفوذ وقد تمت إعارتها لقاء رهن يدفعه المستعير عن كل كتاب يستعيره. والرهن عبارة عن كتاب آخر.

فن التجليد : كان أحد الرهبان يختص بتجليد المخطوطات ويسمى المجلد Ligator على أن أقدم أنواع التجليد كان أقرب إلى ميدان صياغة الذهب والنحت على العاج منه إلى التجليد العادي.

فقد استخدم المجلدون التجليد على طريقة صياغة الذهب وذلك بتزيين ألواح خشبية بصفائح رقيقة من الذهب أو العاج المنحوت أو الفضة، ومطعمة بنفس الوقت بالأحجار الكريمة واللآلئ. أما النقوش البارزة فغالباً ما كانت مستعارة من الصور المرسومة في داخل المخطوط نفسه أو تمثل حكايات من قصص التوراة والإنجيل.

ولقد استخدم الجلد لتجليد المخطوطات العادية واستمر في الاستعمال حتى أصبحت له

الصدارة في أواخر العصور الوسطى، وبز التجليد على طريقة صياغة الذهب، وكانت تستعمل فيه جلود العجول أو البقر. كذلك استخدم القوم طريقة الحفر على الجلد من أجل التجليد. وطريقة ذلك هي ترطيب الجلد بالماء ثم رسم أنموذج عليه، بعد ذلك يحفر بسكين ويوسع أو ينقش بآلة غير حادة، ثم يفرغ باقي الجلد المحيط بالصور حتى يبدو الزخرف بارزاً بالنسبة إلى باقي المساحة الجلدية. وقد ازدهر هذا الفن خاصة في ألمانيا.

كذلك شاعت طريقة اسمها الطبع البارد . وقد شاعت هذه الطريقة أكثر من سابقتها وذلك لأنها لا تتطلب من البراعة ما يتطلبه الحفر على الجلد، وكانت الأدوات التي يحفر بها الجلد ساخنة بحيث تظهر الزخرف بارزاً. ولما كانت هذه الطريقة لا تشمل أي تذهيب فقد عرفت باسم الطبع على البارد. ويجب ألا نتخيل أن التجليدات التي تمت في الأديرة كانت كلها زخرفة بنفس المستوى الرفيع الذي ذكرناه آنفاً؛ فكثير منها كان بسيطاً كل البساطة ولم يكن لدى كثير من الرهبان المجلدين ذلك الروح الفني الرفيع، وإن يكن وجد لدى بعضهم روح فنية وقدرة يدوية تدعو إلى الاعجاب.

هذا وعلى الرغم من أن المكتبات الملحقة بالأديرة والكاتدرائيات والجامعات كانت أهم أنواع المكتبات في العصور الوسطى، إلا أنه وجد عدد لا بأس به من المكتبات الخاصة في ذلك العصر، لابد من ذكر ما يستحق أن يذكر منها. فقد أكملت هذه المكتبات محتويات المكتبات الجامعية والديرية. كذلك دخل قسم كبير من محتوياتها، عن طريق الهبة والإرث، ضمن محتويات المكتبات الجامعية وأغنتها إغناءً عظيماً. كذلك كانت مكتبات النبلاء الإقطاعيين النويات الأولى لما أصبح فيما بعد المكتبات الديرية أو مكتبات الولاية أو حتى المكتبات الوطنية .

لا بد لنا من ذكر مصير عدد من المكتبات الرومانية التي كانت موجودة قبل سنة ٥٠٠م، ذلك لأن قسماً مهماً من كتبها انتقل بالإرث أو الشراء أو المصادرة إلى مكتبات عدد لا بأس به من الأسر الغنية في كل من إيطاليا وإسبانيا وفرنسا. فقد مزقت المخطوطات في أرجاء الإمبراطورية كل ممزق وما وصل إلينا منها هو نسخ منسوخة عن نسخ، ولذا وجب تداولها بعناية وحذر ولا بد من فحص محتوياتها الداخلية بدقة وموازنتها بغيرها من النسخ ونقدها حتى يمكن الوصول إلى شيء قريب من الصحة. وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من المخطوطات حفظ وانتقل إلى أبناء القرون الوسطى، إلا أن القسم الأكبر منها دمر وأحرق عندما احرقت ودمرت المعابد والمدارس والدور التي كانت تحويها.

ومع ذلك فقد وجدت مكتبات خاصة في أنحاء كثيرة من أوروبا حتى في أحلك فترات العصور الوسطى. فقد ورد ذكر لمكتبة خاصة ذات أهمية لا بأس بها كانت موجودة في جنوبي فرنسا في أواخر القرن الخامس، ووصفت أنها تحوي أدباً دنيوياً وفيها عدد كبير من الكتب الأدبية الكلاسيكية. كذلك كان لدى عدد من الأساقفة الإسبان مكتبات خاصة بهم، كما هو الحال مع ايسودور أسقف أشبيلية الذي امتلك مكتبة خاصة ذات أهمية وذلك خلال القرن السابع.

كذلك وجد مكتبات خاصة في كل من فرنسا وألمانيا. فقد ذكر أن سرفاتوس لوبوس الذي كان أسقف فولدا في ألمانيا كان عنده مكتبة فخمة حوت مؤلفات شيشرون وفرجيل وغيرهما من الكتب الكلاسيكية وكان ذلك في القرن التاسع. ولقد ارسل جيربيرت الغالي Gerbent of Gaul الذي كان من رجال الفكر والتعليم في القرن العاشر وأصبح بابا باسم سلفستر الثاني، الوكلاء يجوبون أنحاء أوروبا بحثاً عن المخطوطات ليشتروها له وقد أسس مكتبة حوت علوم الديانة وآداب القدماء وبعض المواد العلمية. ولا بد أن جيربيرت هذا قد تأثر في ذلك بما رآه في الأندلس الإسلامية إذ أنه أمضى حوالي أربع سنوات من شبابه يدرس في جامعات طليطلة وقرطبة الإسلامية وتعلم في معاهدهما وشاهد مكتباتهما مما جعله ينحو هذا النحو، وقد أوصى بمكتبته عند موته إلى كاتدرائية رمس في فرنسا.

ولقد درج بعض رجال الكنسية الكبار كالأساقفة والبطاركة والكرادلة على عادة تأسيس مكتبات؛ إما خاصة بهم أو في المعاهد الموضوعة تحت إدارتهم، أو يوسعوا الموجود منها ويرعوه. ويمكن ذكر عشرات الأمثلة على ذلك. فقد منح أسقف بايو في القرن العاشر مائة مجلد من مكتبته الخاصة هدية إلى مكتبة كاتدرائية بيك Bec في شمال فرنسا.

ولقد سار تطور المكتبات في إيطاليا في الفترة نفسها، أي بين القرنين الثامن والثاني عشر الميلاديين في اتجاه مغاير لسيره في كل من فرنسا وألمانيا. فبينما كان شمالي إيطاليا يتعثر في مشيته محاولاً اللحاق بكل من فرنسا وألمانيا في اهتمامها بالمكتبات، كان هناك نهضة على مقياس ضيق في جنوبي إيطالية وصقلية. فقد وجد في كل من الأديرة وقصور الحكام جو يساعد على التعليم والبحث. وهذا الشيء صحيح على الرغم من الصراع المرير المستمر الذي دار بين الإيطاليين والنورمانديين والإسبانيين والمسلمين والبيزنطيين من أجل السيادة على المنطقة. فقد انتشر تعلم وتعليم اللغة اليونانية وانتشرت المكتبات بكثرة وكانت تحوي كتباً مكتوبة باليونانية، وكتباً مترجمة ومنقولة عن العربية، وكتباً مكتوبة بالعبرية، إلى

جانب الكتب المكتوبة باللاتينية. فقد أوجد الدوق سيرجيوس حاكم نابلي مكتبة صغيرة لنفسه وأهداها للكاتدرائية في مدينته في القرن التاسع. ولقد وجد عدد من المكتبات المهمة في عدد من الأديرة، لعل أشهرها تلك التي وجدت في دير سانت نيقولا، ذلك أن هذا الدير كان مشهوراً باعتباره مركزاً من مراكز التعليم المهمة. وباعتبار جنوبي إيطاليا مكاناً التقت فيه الثقافات المختلفة ـ الإسلامية واليهودية واليونانية واللاتينية والبيزنطية ـ وامتزجت، فقد ترأست إيطاليا أوروبا كلها في دراسة الآداب الكلاسيكية والعلم والطب، ومنها انتقلت هذه العلوم إلى غربي أوروبا وشمالها.

ونجد الاهتمام بالكتب والمكتبات والثقافة والتعليم بشكل عام شائعاً بين طبقة اخرى من طبقات المجتمع في العصور الوسطى ـ بجانب طبقتي النبلاء والكهنة ـ وهي طبقة أصحاب المهن الحرة. فقد وجد بين أصحاب المهن الحرة الراقية، ولا سيما من كان لهم اتصال واحتكاك بالكنائس والأديرة، من جمع كتباً وأوجد مكتبات لا بأس بها. وكان الأطباء بخاصة مهتمين بالكتب والمكتبات، وكانت مجموعاتهم تحوى كتباً كثيرة بعضها طبي وبعضها غير طبي. فقد أوصى الطبيب النمساوي جوهانس بولسماشر (ت١٤٥٣م) بمكتبته إلى كاتدرائية قرب فينا. وقد كانت مجموعته هذه غنية بالكتب الدينية والدنيوية غناها بالآداب الكلاسيكية. وقد خلف لنا محبان من محبي الكتب وجامعيها في القرون الوسطى كتابات تصف نشاطهما في جمع الكتب وتصف الكتب التي امتلكاها أو التي تمنيا أن يمتلكاها. أحد هذين الشخصين هو ريتشارد دو فورنيفال Richarol de Fournival مستشار مدينة اميان في فرنسا في القرن الثالث عشر. وقد ألف دو فورنيفال هذا كتاباً أسماه BIBLIONOMIA وقد وصف في كتابه هذا بشكل خيالي وعبر عن الكتاب أنه «حديقة الأدب» حيث وجدت فيه عدة مناضد غطيت بمخطوطات في مختلف الموضوعات، وعلى الرغم من أن الموضوع المحبب إلى المؤلف هو الفلسفة إلا أنه وجد في بستانه هذا كتب كثيرة في مختلف الموضوعات من طب إلى قانون إلى أدب إلى إلهيات.